

صلاح الأمة يبدأ من صلاح الأسرة د. فاطمة إغبارية



لم يعد الضمير الأخلاقي ثابتاً كما كان يُتصوّر، بل أصبح في زمن العولمة كياناً متحوّلاً، تُعيد تشكيله تدفّقات الثقافة والإعلام والتكنولوجيا. وبين اتساع دوائر الانفتاح وتسارع إيقاع الحياة، يجد الإنسان نفسه أمام منظومات قيمية متعددة، تفرض عليه إعادة تعريف مفاهيم الصواب والخطأ.

لقد أسهمت العولمة في تفكيك المرجعيات الأخلاقية التقليدية، فلم تعد الأسرة أو المدرسة أو المجتمع المحلي المصدر الوحيد لتشكيل القيم. فبفضل الإعلام الرقمي ومنصات التواصل، أصبح الفرد يتعرض يومياً لأنماط سلوكية وخطابات متباينة تتجاوز الحدود الجغرافية والثقافية. هذا التعدد، رغم ما يحمله من ثراء، أوجد حالة من التذبذب القيمي، حيث لم يعد الضمير يستند إلى مرجعية واحدة مستقرة، بل أصبح يتحرك في فضاء واسع من التأثيرات المتداخلة.

وفي قلب هذه التحولات، برزت ظاهرة "سيولة القيم"، حيث لم تعد القيم تُطرح بوصفها ثوابت راسخة، بل كاختيارات نسبية قابلة للتبدّل. ومع تصاعد النزعة الفردية، بات الحكم الأخلاقي في كثير من الأحيان خاضعاً للذوق الشخصي أو للتأثير الاجتماعي اللحظي، لا لمنظومة معيارية واضحة. وهنا يبرز سؤال جوهري: كيف يمكن الحفاظ على توازن أخلاقي في عالم يميل إلى النسبية أكثر من الثبات؟

إن أخطر ما في هذا التحول أن الأسرة—وهي الخلية الأولى في بناء الإنسان—لم تعد في كثير من الحالات قادرة على أداء دورها بوصفها الحاضن الأساسي للضبط القيمي. فقد تراجع حضورها التربوي لصالح مؤثرات خارجية أقوى وأسرع وأكثر جاذبية، ما جعل الطفل ينشأ في فضاء مفتوح من القيم المتناقضة دون مرجعية داخلية راسخة.

في كثير من البيوت، لم تعد التربية فعلاً واعياً ومقصوداً، بل أصبحت مهمة ثانوية تُزاحمها ضغوط الحياة، أو تُستبدل بالتعويض المادي، أو تُترك للتكنولوجيا تربوي بدلاً عن الأسرة. وهكذا يتشكل الوعي الأخلاقي للطفل خارج الإطار الذي يُفترض أن يحتضنه أولاً.

لقد أصبحنا أمام مفارقة خطيرة: عالمٌ يعيد تشكيل الضمير الأخلاقي، وأسرةٌ تتراجع عن دورها في تثبيته. وبين الاثنين ينشأ جيل يتأرجح بين القيم، لا لضعفه، بل لغياب البوصلة الأولى.

يلعب الإعلام الجديد دوراً محورياً في إعادة تشكيل الوعي الأخلاقي، إذ لم يعد مجرد ناقل للقيم، بل أصبح فاعلاً في إنتاجها. فثقافة "الترند"، وسرعة تداول المحتوى، وصناعة المؤثرين، كلها عناصر تسهم في إعادة تعريف المقبول والمرفوض، وأحياناً بصورة تدريجية تجعل ما كان مرفوضاً يبدو مألوفاً مع الوقت.

أمام هذا المشهد المتغير، تبرز التربية بوصفها خط الدفاع الأساسي، لكن ليس بمعناها التقليدي القائم على التلقين، بل بوصفها بناء وعي نقدي داخل الأسرة أولاً. فقبل أن نتحدث عن المدرسة أو المجتمع، تبدأ المعركة الحقيقية من البيت: من الحوار، من القدوة، من الحضور العاطفي والمعرفي للأب والأم معاً.

إن الأسرة اليوم ليست مجرد إطار اجتماعي، بل هي خط الدفاع الأول عن استقرار الضمير الأخلاقي في عالم مضطرب. وإذا ضعفت، فإن كل منظومات التربية اللاحقة تصبح أكثر هشاشة وأقل أثراً.

إن التحدي الحقيقي في زمن العولمة لا يكمن في رفض هذا الواقع، بل في القدرة على إعادة توطين القيم داخله، بدءاً من الأسرة بوصفها النواة الأولى، وبناء ضمير أخلاقي متوازن يجمع بين الانفتاح والثبات، وبين الوعي والانتماء.

في النهاية، لم يعد يُقاس وعي الإنسان بكمّ المعلومات التي يمتلكها، بل بقدرته على صون ضميره الأخلاقي وسط هذا التدفق الهائل من القيم المتغيرة. فالعولمة، رغم تعقيدها، تظل اختباراً حقيقياً يبدأ من الفرد، لكنه يُصنع أولاً داخل الأسرة.

نحتاج إلى آباء حاضرين لا مُؤلّين فقط، وأمّهات شريكات لا ضحايا استنزاف دائم، وبيوت تُبنى على الحوار لا على الصمت. نحتاج أن نستعيد المعنى الحقيقي للتربية، لا كشعار، بل كممارسة يومية واعية.

إما أن نواجه هذا الخلل الآن... أو ندفع ثمنه أجيالاً كاملة.

فالطفولة التي تُهمل اليوم، لن تسامحنا غداً.

الدكتورة فاطمة ابو واصل إغبارية..
دكتوراه في اللغة العربية
الدمعرك....